من الأدوار الحضارية للمدن الصحراوية
وارجلان أنموذجا

أ.. عمار غرايسة

المركز الجامعي –الوادي-

توطئة: يورد البكري (ت460هـ/1067م) اسم وارجلان بهذه الصفة في مسالكه بينما يذكره الادريسي (ت548هـ/1154م)باسم وارقلان، في حين يسمه أبو يعقوب الوارجلاني ورجلان، في الوقت الي يظهر الاسم لدى ابن سعيد المغربي (ت610هـ/1212م بصورة وارکلان، وهو نفس الاسم الذي يظهر ذكره به من قبله ابن حوقل (ق4هـ/10م، وليظهر بعد ذلك الحموي في معجم بلدانه (ت 626هـ/1228م)معتمدا تسمية ورجلان. وذات التسمية اعتمدها المؤرخ الدرجيني (ت670هـ/1271م) باضافته ألفا بعد الواو لتصبح وارجلان. وهي على ما يبدو التسمية التي كانت الأكثر تداولا خاصة بين عدد من المؤرخين الاباضيين

على وجه التحديد من أمثال أبي زكريا (ت بعد 474هـ/ 1081م) و الوسياني (550- 600هـ/1155- 1203م) و الشماخي(ت928هـ/1522م) . وهي كذلك التسمية التي رأيت اعتمادها في ا البحث لاعتقادي أنها الأقرب الى ما قد يكون متصلا بواقع ما كانت عليه خلال أغلب المراحل التاريخية ولكون من كان متداولا بينهم هذا المسمى كانو الأقرب الى المنطقة بالسكنى أو المخالطة لأهلها.

وبالمقابل من ذلك نجد أن العلامة ابن خلدون (ت808هـ/1405م) قد أورد التسمية ذكرها بأكثر من صفة معتمدا الكاف بديلا عن الجيم، و لعله في ذلك كان مرتبطا في زمنه بطبيعة لفظ الحرف بحسب ربما اللغة الزناتية ، حيث أورد المكان باسم وارکلا، وارکلى، وارکلان. في الوقت الذي يعود بنا أبي حمو موسى الزياني (ت971هـ/1536م) الى تسمية ورجلان، في حين سماها الوزان(ت ق 10هـ/16م) باسم وركله لعله استهل بذلك التأسيس للتسمية المتداولة حاليا .

وأيا كان مستوى التباين اللفظي، فانني قد أميل الى الرأي القائل بأن «هذه الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديما و حديثا »

يؤكد الوزان على حقيقة أن وارجلان متقادمة في نشأتها التاريخية، وهي حسبه ربما قد تعود الى الفترة النوميدية ، وان كالن لم يقدم أي شواهد أو اثباتات حول ذلك، لكنه يؤكد على أنها « مدينة قيمة بناها النوميديبون في صحراء نوميديا».

وأنا من خلال ما قد توافر لدي من مصادر و مراجع ، لم أجد ما يفيد بشكل واسع حول ما تعلق بنشأة وارجلان الأولى. وكل ما ورد حول ذلك لايعدو أن يكون

مجرد اشارات تفيد العموم و تفتقر في عمومها الى التفصيل الذي ربما يكون قد غاب في المجاهل الصحراوية.

فصاحب غصن البان لم يفد الا بالتأكيد المجرد على أن وطن وارجلان هو «من الأوطان القديمة». بينما يقدم أمامنا ليثيو اشارة تفيد بمقدم جماعة من الزنجباريين وبنائهم المدينة، و يذكر أن ذلك كان في حدود العام 106هـ/726م، و كانت نسبة المدينة اليهم لسمرة بشرتهم. و على الرغم من أهمية مثل هذه الرواية ، الا أنها مفتقدة على ما يبدو لما يعطيها قيمتها التاريخية، كونها معقطوعة المصدر و غير متوفرة على الشواهد التي تساعد في القبول بها عدى ما سعى لطرحه من فكرة اعتبار أن الاسم يحمل في ثناياه دليلا على ذلك، حيث أشار الى أن التسمية تعني « أبناء الزنوج أو أبناء السمر». و الى جانبه يذكر غيرستر أن نشأة وارجلان قد ارتبطت بجهد قام ابتداؤه على زراعة بساتين النخيل على يد رجل من السودان بواحة عفران، التي أشار الى أنها تعود في عهدها الأول الى عصر الرومان أو ما قبله. و هو وان لم يقدم أيضا ما يقطع فيه الشك باليقين، الا أن الملاحظ هو تقاطعه مع سابقه في التأكيد على حقيقة حضور العامل الخارجي في تأسيس هذه المدينة، و هو على ما أرى أمر بحاجة الى أهمية الوقوف عنده و التأمل فيه.

و يأتي لارجو بنسبة المدينة و أولية نشأتها لامرأة تكون قد سكنت المكان بإقامتها كوخا أحيط بما غرسته حوله من نخيل.

ان هذه الروايات بما احتوت عليه ربما قد تقلل من أهمية اعتمادنا لها كأساس لصورة منشأ وارجلان المدينة ، وأهم التطورات التاريخية التي ستشهدها. و ليس بالمقدور القبول بها أكثر من كونها مجرد احتمالات قد تحمل في طياتها جانبا مما قد «يمكن اعتماده بداية لتلمس عمق الجذور التاريخية لهذه المدينة التي ليس من شك أنها كانت متقادمة في الزمن. ولعل الرأي الصواب ما ذهب اليه دوفيري فيما نقله عنه بوعصبانة، أنه يخشى الخوض في التأريخ القديم لمدينة وارجلان كمدينة صحراوية، واكتفى بالتأكيد على أهميتها باعتبارها هن بين أقدم المدن الصحراوية ، و أنه من غير الممكن التدقيق في دراستها.

ان وارجلان على ما يبدو من المدن الضاربة في القدم ، و هي واحدة من أهم المدن الصحراوية التي لها ارثها التاريخي الموغل في الزمن.

ان النقوشات و الآثار الموجودة اليوم بمنطقة الطاسيلي و الهقار تؤكد حقيقة عمران المناطق الصحراوية الأمر الذي قد يكون من السهل معه امكانية القبول بوجود شواهد مادية كالمسارح و بعض الأدوات القديمة.

ان حدود المنطقة هي في الأساس حدود بلاد المغرب الأوسط الجنوبية، و هي بلا شك قد مثلت «الجزء الفاصل الواصل بين شمال افريقيا وافريقيا الوسطى و الغربية والشرقية»، وهو ما جعل من المدينة الوارجلانية ملتقى لكثير من الخطوط الفكرية والثقافية والاجتماعية و بالأساس التجارية، و ما اتصل بكل ذلك.

في تحديدنا للإطار المكاني، يطالعنا صاحب معجم البلدان بما اعتبره أنه «كورة بين افريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر» و يبدو أنه مع عدم الدقة في التحديد، لكنه يمكن أن يفهم منه أن مقصده قد يعني احتمال وقوع وارجلان على ذات الامتداد المقابل لما بين افريقية و بلاد الجريد. و لعل الخط الذي رسمه الزهري (ت أواسط ق 6هـ / 12م)، يعطي صورة عن الحد الشمالي لبلاد السودان مما هو موالي لبلاد المغرب، حيث يمتد هذا الخط من مدينة نول في الجهات الغربية الى مدينة وارجلان في الجهة الشرقية.

كما أن سلوك الطريق من تادمكة الى القيروان لابد له أن يمر بقسطيلية بعد اجتيازه وارجلان، و بمقابل ذلك ينطلق من واحة الجريد طريقيا تجاريا «غالبا ما تمر قوافله بورقلة وسوف وغدامس». و في قصة جغراف (الأسطورية على ما يبدو) ما يذكر عن خروج أهل درجين من قنطراف نحو أسوف. و هو ما قد يحملنا على اعتبار أسوف و غدامس حدا شرقيا لوارجلان. و في نزول بنو ريغة الزناتيين« مل بين قصور الزاب ووارگلا»، و اختطاطهم قصورا على مجرى الواد النحدر فيه من الشرق الى الغرب و نسبة المكان اليهم، ما يفيد بأن منطقة أريغ تمثل الحد الشمالي لوارجلان.

وبمحاولة الجمع بين نصين لابن خلدون قد نرسم الحد الغربي للمنطقة، حيث أشار الى أنه«وفي قبلة تاهرت القصور أيضا متتالية... أقرب ما اليها جبل راشد»، و بربط هذا الجبل في النص التالي ببلاد الزاب ويحدد معه لقواط بنواحي الصحراء، اذ يذكر أن «ما بين الزاب وجبل راشد ... وبينهم الدوسن أقصى عمل الزاب مرحلتان».

بقي أمامنا حدود وارجلان الجنوبية التني هي من دون شك المسالك الرئيسة لحركة القوافل التجارية نحو بلاد السودان و المتمثلة فيما أشار اليه ابن خلدون من قصور توات وتمنطيت وركان وتسابيت وتيكورارين.

ان وارجلان من خلال ما ذكر تبدو وكأن الطبيعة هيأتها لتكون ذات حيوية على أكثر من صعيد و في أكثر من مجال، مما اكتسبته من مساحة مترامية الأطراف ساعدتها على أن تلعب عديد الأدوار ولتكون واحدة من أهم الحواضر الصحراوية بالمغرب الأوسط.

وصف ابن خلدون وارجلان باشارته لتوسعها العمراني الذي هو علامة التطور الحاصل كنتاج لواقع ما استحدث فيها من حركية شاملة جعلت منها«بلد مستبحر العمران»، وهي مقابل ذلك ذكرت على أنها «سبع مدائن مسورة حصينة بعضها قريب من بعض»، ووصف عمرانها بالحسن والروعة لمبلغ ما وصلت اليه العمارة وفنونها . اذ أشار المدني الى أن قصورها كانت من أروع القصور البربرية بالجنوب.

و في أثناء حديثه عن وركله (وارجلان)، أشار الوزان عطفا على ما سبقت الاشارة اليه من الصلة بالنوميديين، أن المدينة كانت مسورة بسور من الآجر النيئ الذي ضم بين جنباته دورا وصفت بالجمال الذي ازداد بهاءا بما أحاطه من النخل الباسقات،ولعله في ذلك يحاكي ما أشار اليه الحميري قي روضه من أن وارجلان كانت وقتذاك «بلد خصيب كثير النخل والبساتين وفيه مدائن مسورة حصينة بعضها قريب من بعض»

ان من شأن مثل هاته الاشارات أن تحمل في طياتها دلالات واضحة المعالم تؤكد لنا جانبا من الازدهار العمراني الذي يظهر من خلاله براعة أهل وارجلان على مستواهم وقتذاك في تطويق مقار سكناهم بالأجنة و البساتين بما يضفي عليها السمة الجمالية لما ينبعث منها من نغم يعزف أرق الألحان و أعذبها. كما أن هذا الوصف يجعل من وارجلان شبيهة بغيرها من المدن التي كانت تسور نفسها تأمينا وحماية وتأكيدا لمبلغ السيادة الذي تفرضه على مستوى مجال نفوذها.

كانت بوارجلان أنشطة عدة زراعية وصناعية وحرفية متواضعة في عمومها الا أن الحركة التجارية كانت الأكثر انتعاشا، مما أوجد وضعا اجتماعيا واقتصاديا يمكن وصفه بالحيوية و النشاط بما يجعل منها قبلة لتوافد قوافل التجار الأجانب الأغراب عن البلد، و اللذين كان وجودهم عاملا للتساؤل حول مدلى حضور عوامل الاستقطاب و الاستقرار الاجتماعيين، ليس أقلها حركية النشاط و ملائمة عوامل الاستقرار خاصة في ظل ما أشير اليه من وجود الفنادق التي يبدو أنها كانت من الكثرة بما جعل صاحب فندق فاطمة يخاطب الشيخ أبي سليمان بن بن داود ومن معه باستغرابه في قصدهم له رغم كثرة فنادق وارجلان.

كما عرفت المدينة بكثرة مساجدها وتعددها وتوزعها بين المصليات و الجوامع كالمسجد الجامع الموصوف بالكبير. و من غير المقبول القول بأكثر من الامتداد الجغرافي الى جانب القوة الديموغرافية البادية من خلال ما قد ذكر وتمت الاشارة اليه.

ان وارجلان على ما ذكر كانت على مسار الطريق الفاصل الواصل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وهو ما جعل منها بمثابة همزة الربط الاقتصادي وربما حتى الاقتصادي والثقافي والاجتماعي بين جملة المناطق المذكورة. و هي بذلك تؤشر الى مستوى ما تكون عليه المدن المزدهرة التي غالبا ما تمتاز بملائمة موقعها للنشاط التجاري.

ولعل بن خلدون حينما اشار الى استبحار عمران وارجلان انما كان يستشعر واقع الأهمية الجغرافية لموقع البلد ومدى تأثيره على حركية النشاط التجاري الذي كان متميزا بين ما هو داخلي وبين ما كان خارجيا.

التجارة الداخلية: كانت وارجلان من المراكز الحضارية القديمة الواقعة على الحواف الشمالية لصحراء المغرب الأوسط، إذ ارتبطت نشأة المدن فيها بما امتد منها والتقى بها من خطوط المواصلات خاصة منذ منتصف القرن الثامن الذي توسعت من بعده. ومن الطبيعي أن يكون هذا التوسع المديني متبوعا بحركة من النمو الديموغرافي الذي سيكون صاحب الاسهام في الازدهار الاقتصادي المرتبط في جانب كبير منه بالحركة التجارية التي شكلت وارجلان ميناءا صحراويا. تتجمّع فيها مختلف السلع والمنتجات، مجسدة مبلغ الازدهار كمركز تجاري حققته بفضل **ما** تمتعت به « من الأمن النسبي الذي تفرضه أهميتها التجارية وانعزال موقعها مع قوة أهلها واتساع العمران حولها ». وهو ما سمح لها أن تلعب دور المحرك للنشاط التجاري ومنطقة العبور لدخول « العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية، والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثيرا ». ولربما كانت هذه الوضعية قد جعلت من المنطقة جزءا من الصراع السياسي الدائرة رحاه زمن قيام الدولة الفاطمية(297- 567هـ/910- 1171م) حول « المراكز التجارية النشطة الواقعة على المسالك الكبرى ولاسيما المسالك الرابطة بين الواجهتين الصحراوية والبحرية ». وهو ما يفيد باحتمال اعتبار أن وارجلان ربما كانت تشكل وحدة مستقلة بكيانها الذي جعل منها هدفها لحرص الفواطم على نفس حال سلجماسة.

النّشاط التجاري لم يكن بمعزل عن الحركة القبليّة السائدة، وما اتصل بها من توازنات فرضت محدّدات الحاكمية فيه.

احتكر بدو المغرب القديم التجارة « بحكم معرفتهم بالطرق والمسالك ومراكز العمران أقدر من غيرهم على نقل البضائع ومبادلتها بين الصحراء والتل ». إلا أن ظهور الهلاليّين وتغلبهم على طرق القوافل وسيطرتهم المطلقة عليها كان وراء توسعتهم نطاق التجارة البينيّة التلية الصحراوية،هذه التجارة كانت تقوم على نوع من التبادل الذي من خلاله كان التجار« يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان »، وليست المواد المجلوبة من الشمال مرتبطة به، بل إن منها ماهو مستقدم من أوربا عبر قوارب تجار الساحل من المغاربة. وعند وصول هاته التجارة لوارجلان تكون تحت تصرف عدد من التجار « منهم من هم من سكان ورقلة

الأصليين »، و« منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلدة ». وسيكون طبيعيا الإشارة إلى أن هاته السلع ستودع المحلات أو المخازن، أو تصرف للاستهلاك المحلي من خلال ما كان موجودا من الحوانيت كالتي كان يتجر فيها أبي معروف ويدرن بن جواد. وهي السلع التي كانت وارجلان بحاجة إليها وتجلب من المناطق ذات الارتباط بها بحكم التقارب الجغرافي أو المذهبي أو الحاجة الاقتصادية المتبادلة.

فمدينة بادس اشتهرت تاريخيا من خلال معاصرها ومطاحنها بكثرة زيتونها وزيته الذي يسهل انسيابه نحو المنطقة.

ولما كانت تاهرت بلد « رشيق الأسواق»، مشتملة على « ضروب الغلاّت»، فإنها ستشكّل مصدرا مهما للتبادل التجاري الداخلي على الأقل من باب توثيق الروابط المذهبية القائمة وقتذاك. كما لم تكن قلعة بني حماد، بفضل ما امتازت به من موقع حاز أهميته التجارية بمعزل عن هذا الحراك الاقتصادي، إذ أن الشب المشار إلى وجوده على الطريق من وارجلان إلى غدامس، كان يصل إلى بني حماد بقلعتهم التي أوجدت له بها مكانا عرف به ونسب لمصدره، حيث ذكر أبو محمد عبد الله اللواتي(ت 528هـ/1133م) أنه كان على سفر إلى القلعة فرآه « رجل منهم في موقف الشب وهو مكان معروف بأهل وارجلان. فقال لي وارجلاني والله »، ولا يبدو ذلك مستبعدا في ظل المعرفة أن بجاية « بها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار.. وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ».كما أشير إلى وثوق الصلات التجارية مع قسنطينة التي يبدو أن نشاط مبادلاتها مع وارجلان كان يستحق الإشارة إليه. وفي الجهة الغربية شكلت تلمسان معبرا مهما بموقعها « في أول الصحراء.. على الطريق إلى سجلماسة ووارگلان وغيرها من بلاد الصحراء ».

الأسواق وتعاملاتها: برغم ما تمثله الأسواق من أهمية اقتصادية كونها نقطة تصريف وتأمين المنتجات ومختلف الاحتياجات، إلا أنها لم تحض بحسب ما هو متوفر من مصادر بالعناية اللازمة. إذ لم تفد الروايات الواردة بأي تفاصيل يمكن الوقوف من خلالها على ما يتصل بأسواق وارجلان من حيث طبيعتها وكيفية سيرها، وأهم تقاسيمها، وما إذا كانت خاضعة للاحتكارات الفردية أو الجماعية.

بحسب ما أفاد به ليثيو(Lethelleux)، فان سكان وارجلان كانت لهم أولوية والأحقية في إدارة التجارة بوارجلان، ربما بفضل ما كانوا يتمتعون به من خبرة في التعاطي مع الممارسة التجارية خاصة في ظل العلاقات التجارية المميزة القائمة على

كون وارجلان بوابة رئيسية للتجارة مع بلاد السودان لكن قوة هذا النشاط التجاري سمح بوجود عناصر خارجية خاصة التجار الوافدين من قسنطينة، والذين ربما شكلوا أحد أهم حلقات التواصل والحراك التجاري على مستوى وارجلان وعلاقاتها خاصة مع الجهات الشمالية مكن بلاد المغرب الإسلامي الأوسط.

إن وارجلان وبحكم اعتبارها نقطة وصل بين بلاد السودان وعدد من مختلف الجهات، فإنها ستكون محط رحال القوافل الوافدة من كل جهة كما أشار لذلك كلا من الوزان وكربخال ما يؤكد حتمية وجود مخازن لإيداع السلع قبل تصريفها لتأخذ مسالكها، ولابد أن يكون جزءا مهما منها قد وزع على مستوى وارجلان التي لابد أن تكون قد اشتملت على نقاط بيع الحوانيت التي أشار الوسياني إلى وجودها. ومن المنطقي، وبحكم الطبيعة الصحراوية، وما كانت عليه المسالك والمسافات المقطوعة خلالها، فقد تكون هاته الأسواق متباينة بين اليومي منها، الموجهة للتسوق المحلي، وبين تلك الموجهة للتسوق الخارجي، سواء الحواضر، أو الجهات ذات الصلة بأسواق وارجلان، ولا شك أن هاته الأسواق ستكون ذات طابع أسبوعي.

إن وارجلان بما امتازت به من وجود « قبائل أغنياء وتجار يتجولون في بلاد السودان »، مما يعطي الانطباع بوجود حركة الاموال باعتبارها اساس الثروة والمحرك الرئيس للنشاط التجاري.

ولما كنا نتحدث عن وراجلان ككيان قائم بذاته معتمدا على نفسه مثبتا لوجوده، فإن التساؤل القائم بإلحاح هو مدى قدرتها على إيجاد عملة خاصة. الحقيقة المبدئية ينتفي معها وجود أي شواهد مادية حية تدل على ذلك. لكن الشواهد النصية التاريخية قد نلتمس فيها بعضا مما يصب ضمن إطار إمكانية اعتمادها كجانب من الحقيقة.

إنّ تجار وارجلان المتجوّلين في بلاد السودان كان لهم الدور الكبير في تأكيد قوّة وارجلان الاقتصادية واستقلالها المالي، حيث كانوا « يجلبون التبر ويضربونه في بلادهم »، ويوضح ذلك ويؤكد أن ما يضرب « ببلد واركلان دنانير على نوع المرابطية وهي مشهورة »، وذات الحقيقة يؤكدها صاحب كتاب الإستبصار بأن ما يضرب «ببلد وارجلان دنانير على نوع المرابطية لكنها نازلة في تحميل كثير، والدنانير الوارجلانية مشهورة ». ومما ذكره موريس لومبارد أن ذهب السودان كان مكدسا بكبرى الحواضر التي من بينها وارجلان، حيث كانت تضرب النقود الذهبية الفضية والنحاسية. ولعل الرأي الذي قد يساعد على القبول بالحقيقة هو أن

« مسبكة وارجلان إنما هي رد فعل وتعويض عن الخسارة التي مني بها الاباضية بسقوط تاهرت واضمحلال عملة الرستميين ».

الذي يبدو، هو أن العملة المساة بالمرابطية كان لها انتشار واسع، ولا يعلم ما إذا كان أصل مسماها نسبتها للمرابطين، وهو ما قد لا يستبعد بحكم سيطرتهم على المعبر الغربي لتجارة الذهب. وقد كان لهاته العملة المرابطية حضورا على موائد الفقهاء، حيث أورد ذكرها الونشريسي في أمثلة القراض الذي هو أحد أبواب الفقه، التي حدد من بينها « دفع دنانير مرابطية ليجري على أساس القراض»، كما سئل المازريعن الدنانير السفاقسية «هل يجوز بيعها بالمرابطية ».

إن من غير القابل للتسليم بحسب ما يبدو، أن تكون وارجلان مجرد جالبة للذهب كالأحمال على الجمال، من دون أن يكون لها منه نصيب تحدد من خلاله معاملاتها التجارية الموصوفة فيها بالقوة والحيوية والنشاط.فالروايات التي تناولت جانبا ممّا اتصل بحركة الأموال، توحي بوجود عملة نقدية متداولة. فالشيخ أبو صالح جنون بن يمريان(ق4هـ/10مخ أبي نوح الذي كان بجواره« أدخل يدك في جيبي..فوجد فيه صرة، وفكها فوجد فيها سبعين دينارا»، وذكرها الدرجيني على أنها كانت «سبعون دينارا ذهبيا»، والشيخ أبا صالح نفسه قد استدان زمن كان بأدرج « عشرة دنانير صرفها فيما لا بد له منه »، كما أشار الوسياني لرجل عمل بوصيّة الشيخ أبي محمد فاشترى من سوق وارجلان« ثلاثة من الجمال بأربعة وعشرون دينارا... وأدخل واحدة منها السوق فبلغ أربعة وعشرون دينارا ». والشيخ أبا عمار عبد الكافي(ت قبل570هـ/1174م)، لمّا كان يستكمل تحصيله العلمي بتونس « كانت تأتيه من بلده في كل عام ألف دينارا»، وليس واضحا إن كانت الإشارة الواردة بخصوص القيمة المعادلة بعد الاستبدال، أم هي العملة القابلة للتداول. ويبدو لي أن هذا الاخير مستبعد أمام ما ذكره أبو الربيع من أن « أبا عبد الله محمد بن بكار الزواغي سلف لأبي محمد ماكسن دنانير في قصطالية وهو يجوز بها ليأخذها في أريغ.. فإذا الدنانير التي أخذها أبو عبد الله لا تجوز في أريغ ». بينما كانت الدنانير متماثلة بين أريغ ووارجلان على ما يبدو لما كان شائعا « وذلك أن يدفع من وارجلان دنانير ليأخذها في أريغ ».

الذي يبدو أن المفاضلة بين الدنانير على قدر وزنها من الذهب، وهو ما نجد له أيضا إيضاحا فيما ذكر عن الدنانير المرابطية واستبدالها بالسفاقسية المشار إليها من أن «السكك المشتملة على النقدين فيفرق بأن المعتبر فيها عند الناس الذهب قل أو كثر، ويتبايعون على تسميتها به وهو المقصود وذلك البلد بنقشه وبها تقع المعاوضة. ولوا بصروا تغيرا في النّقص استرابوه فتبيّن أن المعتبر من السّكّة الحاصل من الذهب.

ويقال دنانير بلد كذا ». إن أهل وارجلان لا يستبعد اعتمادهم عملة خاصة بهم، ربما ازداد الأمر تخصيصا بعد سقوط دولة بني رستم(296هـ/908م)، وهم في ذلك ليسوا بدعا. إذ تشير المسكوكات التي عثر عليها إلى أن ثقافة الإباضيّين منذ دولتهم الأولى قامت على اعتمادهم عملة مرتبطة بقدرتهم ربما على التحكم المبكر في الحركة التجارية وعموم النشاط الاقتصادي. فقد وجد دينار ضمن مجموعة نقود إفريقية نسب لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعا فري (ت144هـ/761م)، وفلس عبد الرحمان بن رستم(160- 171هـ/777- 787م) معلوم، كما أن مخلد بن كيداد كانت له دنانير خاصة به.

لكن يبقى مع كل ما تم تأكيده، أن التساؤل القائم لما كانت الدنانير الوارجلانية على مستوى من الشهرة كما وصفت، الم توجد بعض الشواهد الحية الدالة عليها ؟.

التجارة الخارجية:

الواقع العام: بحكم التواصل الجغرافي و تبادل المنافع، كانت تجارة وارجلان الخارجية أكثر نشاطا مع بلاد السودان التي استأثرت بحركة القوافل أمام محدودية الحركة التي شملت أيضا سجلماسة وقصطالية والقيروان وجبل نفوسة ومصر التي كانت المنفذ لبلاد الشرق وأوربا عبر سواحل قلعة بني حماد والأندلس عبر السواحل الغربية المتصلة بالمرية.

الفتح الإسلامي كان عاملا مهما في تحريك و تنشيط التجارة مع بلاد السودان التي اندفع نحوها «التجار العرب...وأقاموا علاقات جيدة... ولقد وصلوا السنغال والنيجر كما توغلوا في حوض النيل الأعلى » وكان هذا السودان دعما لبعض جوانب الحضارة الإسلامية لما وفّره من « العاج والأبنوس والرقيق الأسود» وإلى جانب العرب «كان دور التجار البربر واسعا للغاية في هذا المجال ».

لقد شكّلت وارجلان المنفذ الرئيس بين التل في المغرب الأوسط وبلاد السودان، وهو ما سيزيد من شأنها لاستقرار التجار المتنقلين بين الجهتين بها. ذكر ابن خلدون«أن هذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان، يسكنها التجار الداخلون لها بالبضائع »، وهو ما جعلها « مركزا لشبكة عنكبوت، فمنها تنطلق قوافل نحو الصحراء الكبرى ». وسيكون من الطبيعي أن تنعكس هاته الحركة على الوضع العام خاصة في جوانبه الاجتماعية والحضارية، إذ ضمنت تحوّل المنطقة من الطابع القروي إلى المديني الذي تحقّق معه «انتقال السكان من حياة البداوة والترحال إلى حياة الحضارة والاستقرار ».

وهذا التحوّل سيزيد من تأكيد نظرية السيادة التي كانت تتمتع بها وارجلان ما مكّنها من أن تشكل قوة ضاربة في عمق الصحراء سجّلت حضورها خاصة في حضره الاقتصادي كأساس الوجودية.

لم تكن الحركة التجارية ذات اتجاه واحد، بل كانت ضمن حركة قائمة على التبادل، وهو ما أشار إليه الإدريسي عن أهل مدينة أنكلاس من بلاد كوّار، والذين عرف عنهم، كثرة تجوالهم « فيصلون بلاد ورقلان وسائر أرض المغرب الأقصى ». ومقابل هاته الحركة وجدت « قوافل أخرى كانت تقصد مصر.. مشحنة بالبضائع الأهلية والمجلوبة »، وهذا ما يوحي باتساع دائرة المعاملات التجارية الدالة على قوة النشاط الاقتصادي. فالوصول لمصر كان يقتضي اجتياز افريقية وجبل نفوسة بعد الخروج من أسوف، ولربما اتخذت القوافل مسالكها نحو غدامس. وفي الجهة الغربية، كان الطريق يمتد نحو سلجماسة، حيث ذكر الدر جيني أن الشيخ أبو زكريا وصل « ذات مرة من سلجماسة إلى وارجلان، ثم خرج من وارجلان متوجها إلى جربه..». وفي هذا المضمار، لم يكن الأندلسيّون ليعزلوا أنفسهم عنه، حيث كانوا «يصدرون للمغرب وغانا وبلاد السودان ما تنتجه الأندلس من مواد زراعية وصناعية ». وقد بلغ هذا النشاط مستوى من القوة ما جعل من المرية تطلق على أحد أبوابها اسم باب السودان، دلالة على حركة ما يدخل من منتجات سودانية كانت وارجلان معبرا لجزء غير يسير منها على ما يبدو.

ومن جانب آخر ازدهرت المبادلات التجارية مع عموم أوربا عبر البحر المتوسط، كان فيها الذهب والبحث عنه العامل الأكثر تأثيرا في ذلك. وكان الساحل يمثل نقطة التواصل مع حيوية الحركة بين أوربا وبلاد المغرب من مثل ما حكاه ابن جبير في رحلته من صقلية

حركة التبـادل:

المبادلات كانت على غاية من النشاط بين وارجلان وبلاد السودان التي يمكن وصفها بأنها كانت سوقا تستوعب كل ما يجلب لها، إذ يذكر أن الشيخ أبا صالح جنون بن يمريان كانت له جمالا على ما ذكر بأدراج « فاشترى منها رجل جملا، فسأل الرجل الثمن، فقال له ثمن جملك في تادمكّت، فجهز أبو صالح للسير معه إلى تادمكّت.. فساوم الجمل، فبقي عما رسمه صاحبه شيء يسير.. فلم يبعه فقفل راجعا إلى وارجلان، وما سمعنا بجمل رجع من تادمكّت قط إلى وراجلان غيره ». وهو ما يؤكد أن كل ما يصل السودان يجد طريقه للرواج.

تقوم العلاقة التجارية مع بلاد السودان على أساس المقايضة « فتقايض السلع المودعة على عين المكان.. مقابل منتجات البلاد، التبر وعطر الزباد والعنبر الرمادي والعاج والجلود وجوز الكولا وريش النعام والعبيد، وهي سلع ثمينة تسلكبعد ذلك طريق الشمال ». إن الحاجة هي التي تحكمت في التبادل بين الضفتين « فقد كانت هناك حاصلات في الشمال يحتاجها سكان الجنوب وفي مقدمتها الملح والمنسوجات والحلي، كما كانت هناك حاصلات سودانية يحتاجها سكان الشمال كالذهب والأخشاب وجلود الحيوانات»، ومثل هذه المنتجات محل التبادل كانت تعرف اصطلاحا بالصامت من مثل ما ذكر عن واحد من أهل وارجلان الذي سافر « إلى القبلة فجعل تجارته صامتا».

إن وارجلان بواسطة هذا الموقع، قد استطاعت أن تكتسي أهمية بالغة تظهر لنا من حين لآخر ما يربط بجانب من القوة التي استمدتها المدينة في تأكيدها قدرتها على إدارة شؤونها وتأمين احتياجاتها، بل أن تكون على مستوى من القدرة على لعب أدوار بارزة تتصل بمصدر الحيوية والحركية الاقتصادية لعدد من الكيانات السياسية ذات الصلة بها. فوا رجلان كانت تستقدم مختلف السلع والمنتجات لتنقلها عبر الجمل الذي يعد من سفن الصحراء في كل الاتجاهات، إذ « تنقل صفائح النحاس، وقطع الحديد، وأدوات مصنّعة مثل الإبر، براغي، بذور، فلفل أسود، تمور.. والقوافل التي تمر في الجهة الشرقية للصحراء تحمل الملح من السودان، وتحمل القوافل أنياب الفيلة، جلود الأحمرة الوحشية، الجلود المطرزة ».

وقد ضرب التجار الرستميون في ذلك بسهم وافر، ولا شك أن القوافل لم تكن لتصل دون المرور بوارجلان، حيث كانت تحمل بمختلف « المنسوجات الصوفية والقطنية، والكتانية وأواني الزجاج والفخار والخزف ذي البريق المعدني والملح إلى بلاد السودان لندرته عندهم، فيبيعونه هناك بأسعار مرتفعة للغاية ».

أما القوافل المشرقية، فتعود « محملة بالتوابل والكافور والحرير » إلى جانب التحف المشرقية و الأفاويح والأحجار الكريمة والكتب أيضا.

وعلى العموم، فإن تجارة القوافل كانت أرباحها وفيرة والغنى أقرب الأقدار فيها حتى قال بعضهم « تكفي رحلتان أو ثلاث ليستغني التاجر ». ولا تبدو المقايضة الأسلوب الأوحد في المعاملات التجارية، إذ كانت إلى جانبها المعاملات المالية المرتبطة بتحصيل النقد مباشرة في عين المكان.

ولما كانت التجارة العابرة للصحراء بما تنطلي علية من مخاطر وما يصاحبها من مصاعب، وما رافق ذلك من تطوّر « التجارة تطورا كبيرا من القرنيين الثالث والرابع الهجري دافعا للكثيرين للبحث عن وسائل تكفل حماية الأموال الضخمة من الضياع...، ومن هذه الوسائل السفاتج والحوالات والصكوك ». و قد أشار ابن حوقل أنه قد رأى بنفسه « صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأود غشت وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار ».ولا تبدو هذه الطريقة على مستوى ما هي عليه من التجريد، بل يفترض فيها أن تكون ذات ارتباطات تتصل من دون شك بكتابة هاته الصكوك وطريقة الإشهاد عليها، والاهم من كل ذلك ما يجعلها قابلة للتداول بين البلدان المتنقلة بينها. ثمة أمرا آخر لا يقل أهمية، ويفترض فيه أن يكون ذا أثر في تحديد طبيعة المعاملات التجارية التي كان يمليها نظام القوافل، والتي أشار إليها صاحب نفح الطيب، في تأكيد وجود تواصل بين نقطتي تحرك ووصول القوافل لضبط الاحتياجات وتأمين مستوى الرواج من السلع محل الاتجار، إذ غالبا ما « كان للتجار وكلاء في كافة المناطق وخاصة في المراكز والمدن التجارية الهامة » ولا تبدو وارجلان بعيدة عن هذا السلوك، كونها نقطة مركزية بين عدد من خطوط التجارة المجتازة للحدود القطرية، وليس من شك أن نظام الوكلاء هذا سيكون بحاجة لاعتماد أساليب ووسائل تكون قادرة على ضمان ما هو متأمل فيه منه من النجاحات والأرباح. و يتصل بهؤلاء الوكلاء نوعين من التجار، المجهز والركاض. فالمجهز هو من « ينصب له الموضع الذي يجهز إليه من يقبض البضائع التي يصدرها إليه ويتولى هذا القابض بيعها وشراء الأعواض عنها ». أما الركاض فهو من « يقوم بالأسفار والتعامل مع البلدان المختلفة بعد أن يكون قد قام بدراسة أحوالها وأوضاعها وعرف كل ما يتعلق بالتجارة فيها معتمدا على ووكلاء مأمونين ».

جهود بني رستم: إن الدولة الرستمية، قد وجدت في وارجلان المنفذ الرئيس نحو بلاد السودان، وهو ما زاد في التأثير على مكانة المدينة التجارية، وإحاطتها بمستوى من الرعاية تحفظ كيانها الذي يضمن لها نوعا من القدرة على القيام بمختلف الأدوار التي تضمن استمرارية اعتبارها الرئة الاقتصادية التي عدت فيها وارجلان « من القواعد التجارية للدولة الرستمية »، وهو ما جعل البعض يعتبر أن «الإمارة الرستمية الاباضية من أولى الكيانات السياسية في بلاد المغرب التي أقامت علاقات سياسية واقتصادية مع بلاد السودان » فالإمام أفلح بن الإمام عبد الوهاب « كان له مع أغلب الملوك مودة، ولاسيما ملك (صوصو) أو (كوكو)... وكان أكثر المسافرين لتجارة

السودان في ذلك العهد من أهل مدينة (وارجلان) وهوارة »، وهذا ما قد يكون وراء الاعتقاد أن وارجلان كانت الوجه الرستمي الغالب في تلك البلاد السودانية، وهو يؤكد ضرورة الاهتمام بالتجارة المنطلقة من وارجلان والإسهام الرسمي بفاعلية في ذلك، إذ أن ابن الصغير يكون قد أخبرنا باهتمام الأئمة الرستميين بتأمين المسالك وربما توفير بعض مستلزماتها خاصة فيما تعلق بحفر الآبار باعتبار الماء الأكثر ضرورة. وفي ذلك يقول ابن الصغير« واستعملت السبل... إلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة.. والناس والتجار من كل الأقطار تاجرو»، وفي إطار توثيق الصلات الرسمية لإمارة بني رستم مع بلاد السودان جاءت وفادة الإمام أفلح برئاسة محمد بن عرفة. ويبدو أن هاته العلاقات قد تطورت لمستوى ترحيب «أئمة بني رستم وعمالهم بتجار السودان، ففتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم وقدموا إليهم التسهيلات التجارية، فأعفوا بضائعهم من الضرائب والرسوم وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل »، وقد استمرت هذه الاتصالات حتى ما بعد سقوط الدولة الرستمية(296هـ/908م) « وما رافق ذلك من التجاء أصحاب المذهب إلى وارجلان أين ازداد اتصالهم بتلك الأقاليم و تبادلوا معهم المنافع »

بالوقوف أمام جملة هاته المشاهد والوقائع، يتبادر إلى مخيلتي أن وارجلان أصبحت ربما تشكل كيانا قائما بذاته، امتلكت بفضل التجارة الرائجة مع بلاد السودان عناصر القوة والمنعة، ولربما أصبحت مصدرا للخطر الذي يتهدد الكثير من القوى السياسية الناشئة خاصة بعد سقوط دولة بني رستم. ولعل هذا كان من الدوافع التي أوغرت صدور العبيديين للنيل من وارجلان للحؤول دون أي إمكانية لإعادة إحياء الدولة الرستمية المغيبة سياسيا. ولا شك أن ذلك قد يرتقي لمستوى القبول باعتبارية وارجلان ككيان له خصوصياته.

❖حركة القوافل والسير إلى السودان :

امتازت الطريق الواصلة لبلاد السودان تحديدا بكونها مفاوز مقفرة معطشة شديدة الحر والقر وليس لسالكها من المخاطر مفر. فهي عبارة عن « مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي ». اجتاز بن بطوطة بعضا منها، واصفا إياها بشدة الحر.

وهذا الحال يفترض ضرورة الملائمة في المسير الذي يحدده ابن حوقل بفصل الشتاء، بينما الإدريسي يجعله زمن الخريف.